المؤتمر الدولي الافتراضي الأول:

الخطاب الروائي العربي السير–ذاتي بين الواقعية والتّخييل السردي. يومي:09 مارس 2022

عنوان المداخلة: تّداخل الأنواع الأدبية في رواية السير–الذاتي عند عائشة عبد الرحمان.

رواية على الجسر بين الحياة والموت أنموذجا.

الدكتورة: حميدة قادوم/ أستاذة محاضرة قسم أ/ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية–قسنطينة–

ملخص:

يطرح موضوع السيرة الذاتية في الكتابة الإبداعية بشكل عام إشكاليات عديدة؛ منها الحضور المحتشم لهذا النّمط من الكتابة، بسبب هيمنة النّسق الثقافي على فكر المبدع العربي، لأنّها عبارة عن (تسجيل استعاري صادق ومقصود لعمر أو على الأقل لعدد معتبر من سنين من الخبرات والتّفاعلات، وتأثيراتها الفورية وبعيدة المدى على الشخص) وبالتالي فهي مرتبطة بكتابة الاعتراف والبوح عن خصوصيات الكاتب، بما فيها من تجاوزات قد تكون حدثت معه، وهي –كما يعرفها فليب لوجون– "حكي استعادي نثري يقوم به الشخص لشخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك ما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"، لذلك نجد أن كُتَّاب السيرة الذّاتية يتعاملون معها بحذر شديد، وخاصة إذا ارتبطت بكتابة المرأة في المجتمع العربي، الذي ما يزال ينظر إلى وجودها في الساحة الثقافية بعين الريبة والرفض.

ويعدُّ حضور السّيرة الذّاتية في كتابة المرأة نوعا من أنواع التّحدي والجرأة في التّعامل مع النَّسق الثقافي المتحكم في الذهنية العربية، فبرزت أسماء لامعة في هذا المجال أمثال: هدى الشعراوي، نبوية موسى، زينب الغزالي، فدوى طوقان، عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطئ) وغيرها

وعليه، نسعى في هذه الدّراسة إلى الخوض في موضوع السّيرة الذّاتية عند الكاتبة عائشة عبد الرحمان من خلال روايتها " على الجسر بين الحياة والموت" بالتّطرق إلى؛ مفهوم السّيرة الذّاتية، ثم علاقة السّيرة الذّاتية بالسّرد الروائي، وأخيرا صور تداخل الأنواع الأدبية في كتابة السّيرة الذّاتية.

مقدمة:

شهدت الكتابة السردية العربية تطورا ملحوظا صاحبه تطور على مستوى المصطلحات والمعاني من جهة، وتطور في الأنواع الأدبية من جهة أخرى، وبعدما كان الأدب يقتصر على جنسين؛ الشعر والنثر، أصبح اليوم كل منهما يتوزع على أنواع أبية لم تعرف من قبل في أدبنا العربي، فاشتهر في الشعر القصيدة الحرة، والقصيدة النثرية، والقصيدة والمدوّرة، والقصيدة الومضة، والقصيدة الرقمية وغيرها، هذا من جهة، وعرف النثر من جهة أخرى، أصنافا جديدة على غرار الرواية الواقعية، والقصة القصيرة، والمسرحية الشعرية، والرواية الرقمية وغيرها

وعلى الرغم من هذا التنوع والثراء الظاهر على الأنواع الأدبية ظل كل صنف منها محافظا على خصوصيته وتفرده باللغة والسياق المناسب بما يسمح له التميز عن غيره حتى في ظل غياب الحدود الأدبية في النّصوص العربية.

تقف هذه الدّراسة عند جنس أدبي اشتهر كثيرا في الآونة الأخيرة، وتعددت المصطلحات والتسميات الواصفة له، نظرا لثراء مضمونه واختلاف مواقف النّقاد تجاهه، ويتثمل في السّيرة الذّاتية، هذا النّوع الأدبي الذي أثبت وجوده في الأدب العربي منذ القديم، ولايزال يفرض وجوده على الساحة الأدبية في ظلّ التّطور الحاصل لجنس الرواية التي أصبحت ديوان العرب في العصر الحديث، وعليه، سعى الكتّاب إلى تطوير السّيرة الذّاتية حتى تكون أكثر ملائمة للواقع هذا من جهة، ونوعا أدبيا خاصا من جهة أخرى.

لذلك هذه تحاول الدّراسة أن تجيب عن الانشغالات الآتية: ما هو مفهوم السّيرة الذّاتية؟ وما هي العلاقة بينها وبين السرد الروائي؟ وما هي صور التّداخل النّوعي في رواية على الجسر بين الحياة والموت؟

1-مفهوم السّيرة الذّاتية Autobuography:

يقرّ النّقاد والباحثون أنّ السّيرة الذّاتية جنس أدبي مستقل، يدخل في إطاره سرد الأحداث الشخصية والتّجارب الحياتية التي مرّ بها الكاتب في نص جامع لتفاصيل حياته وعرض الطريقة التي تجاوز بها العقبات، وتستعين السّيرة الذّاتية بالسّرد لكونه" يتعامل مع الواقع الإنساني للزمن، منحدرا في الذاكرة من أجل الماضي، حيث يكون وثيق الصلة بالحاضر، ومتخيلا المستقبل"[1]، هذا من جهة، ويسعى من جهة أخرى إلى تحقيق ما سماه (فيليب لوجون) **الميثاق السّير ذاتي** المتمثل في ضرورة وجود" تطابق بين المؤلف والسارد والشخصية"[2] بمعنى أن المؤلف يساوي السارد والسارد يساوي الشخصية الرئيسية في النّص.

وإذا تحقق هذا الميثاق تصبح السّيرة الذّاتية" الشكل الأهم والأخطر من شكلي السيرة، يتكفل فيه الرواي السير- ذاتي برواية أحداث حياته، ويجري التركيز فيها على المجال الذي تتميز فيه شخصيته الحيوية، كأن يكون المجال الفني أو الاجتماعي أو السياسي أو العسكري...إلخ كلما كان ذلك ضروريا وممكنا، ويسعى في ذلك إلى انتخاب حلقات معينة مركزة من سيرة هذه الحياة، وحشدها بأسلوبية خاصة تضمن له صناعة نص سردي متكامل ذي مضمون مقنع ومثير ومسلّ."[3]

ويضيف النّاقد (صابر عبيد) تعريفه للسّيرة الذّاتية في علاقتها بالرواية، ويسميها **رواية السّيرة الذّاتية**، على الرغم من اختلاف النّقاد حول هذه التّسمية وغيرها، فهي عنده" عمل سردي روائي يستند في مدونته الروائية على السّيرة الذّاتية للروائي، حيث تعتمد الحادثة الروائية في سياقها الحكائي اعتمادا شبه كلي على واقعة سير ذاتية واقعية..."[4]

2-العلاقة بين السّير-الذّاتي والسّرد الروائي:

تحدّث (ميشيل زيرافا) عن الرواية في علاقتها مع بقية الأنواع الأدبية قائلا:" الرواية تقع في رافد كل الأنواع"[5] بما يعني أنها/الرواية النوع الأدبي الجامع بين غيرها كالشعر والدراما

والقصة، ويتم من خلالها السرد في أبسط صورة وأعمق بنية ودلالة في الآن نفسه، هذا من جهة، ويشير من جهة أخرى إلى صعوبة الفصل بين الأنواع الأدبية، كونها" تلتقي في نقاط غير مباشرة للدّرجة التي يصبح التداخل عندها أمرا حتميا وطبيعيا، عندها لا نبحث عن أسباب التّداخل بقدر ما يشغلنا آلياته وطرائقه تلك التي يترتب عليها إنتاج دلالاته وجمالياته التي لا تتشكل بدورها من أسباب التداخل وإنما تتأسس على الآليات والطرائق والكيفيات التي تتعاضد لإنتاج هذه الجماليات."[6]

وعليه يمكننا القول أنّ موضوع التّداخل النّوعي في السّرديات العربية الحديثة والمعاصرة أمر متفق على، بناء على ما سماه النّاقد المغربي عبد المالك أشهبون (الميثاق القرائي)، فالرواية كما هو معروف، جنس أدبي غير مستقر في شكله وبنيته الدّاخلية، وهي في تطور مستمر، وقد أدى بها هذا التطور إلى أن تقيم" شكلا من الحوار والتناظر بين مختلف الأنواع التعبيرية الأدبية وغير الأدبية."[7] ويحدث هذا في إطار التّحول القيمي لمختلف الأنواع الأدبية، فنجد القصيدة حاضرة في الرواية، والسرد حاضرا في الشعر، والدراما حاضرة في القصيدة النثرية وهكذا.

وفي إطار الحديث عن علاقة السيرة الذاتية بالرواية لابد من الإشارة إلى أهمية هذه العلاقة التي تحقق الجماليات الفنية للسيرة الذاتية كونها حالة سردية مولودة من الوهم والتخييل، أي من رحم الرواية بكل ما تمتلكه من عناصر فنية؛ بحيث لا تتحقق أدبية السيرة الذاتية إلا من خلال روائيتها، كما أن روائية الروايةّ لا يمكن أن تتحقق على المستوى النفسي العميق وآلية الكشف والفضح للتابوهات إلا من هلال الحفر في سيرية مبدعها المعيشية والثقافية والفكرية والجمالية.[8]

ولعل أهم أسباب هذه التّداخلات في الأنواع الأدبية التي يلجأ إليها تعود إلى رغبته في "تأكيد حضور الشكل الإبداعي ودوره في مواجهة اهتزاز المعنى واضطراب القيمة، ومواجهة

أوجه القمع وضبط إيقاعات الأصوات المتنافرة لأزمة العالم الذي تحول إلى قرية كونية يختلط فيها الحلم بالكابوس ويمتزج فيها الوعد بالوعيد وتهديد امبراطورية العالم الجديد."[9]

يأخذنا هذا المعنى إلى حقيقة لا مناص منها ، مفادها أنّ التّداخل في الأنواع الأدبية أمر حتمي وضروري خاصة ما تعلق بالسرد الذي يعتبر عنصرا مهما في تكون النص الأدبي، وهكذا تصبح العلاقة بين السيرة الذاتية والرواية علاقة حتمية أيضا، تمليها طبيعة السرد الذي يشكل كل منهما، فالسرد هو النّقطة التي يلتقي فيها الروائي بالسير– ذاتي، ولئن كان السرد في الرواية يتشكل بناء على الواقعي والتخييلي في كثير من المحطّات، فإن السّير– ذاتي يتشكّل في أغلب الأوقات من الواقعي، أي تكون المرجعية الواقعية هي الأساس فيه، وهكذا تظل" السيرة الروائية هي نوع من السرد الكثيف الذي يتقابل فيه الراوي والروائي ويندرجان معا في تداخل مستمر ولا نهائي."[10]

ومن صور التّداخل النّوعي الذي نلاحظه على السّيرة الذّاتية في مقابل الأنواع الأدبية الأخرى، نجد التداخل الاصطلاحي؛ حيث يفضل كل كاتب توصيف نصه السّيري بما يراه مناسبا، فمنهم من يطلق عليه السّيرة الذّاتية بصريح العبارة، ومنهم من يسميها رواية السير– ذاتي، وآخر السيرة–الرواية، والسّيرة الذّاتية الذّهنية وغيرها، وكمثال على ذلك ما وُصفت به الرواية الشهيرة (الخبز الحافي) لمحمد شكري الذي سمّاها سيرة ذاتية روائية، حتى لا يورط نفسه في فخ التّوصيف، فلا يؤكد أنّها سيرة ولا يصّر أنّها رواية، وإنّما هي بالنّسبة له" سيرة مكتوبة بتاريخ مسلسل، فهي سيرة ذاتية مروّاة أو سيرة ذاتية بشكل روائي."[11]

ومثلما تكتفي الكاتبة الجزائرية فضيلة الفاروق بتوصيف نصيها (تاء الخجل) و(اكتشاف الشهوة) بأنّها رواية في حين نجد أنّ القارئ لهما سرعان ما يكتشف أنّهما سيرة ذاتية بكل تفاصيلها مع ما يتخللها من تخييل في كثير من المواضع.

ومثلما يفعل (حنا مينة) في نصوصه (المستنقع) و(بقايا صور) و(القطاف) التي يطلق عليها التجنيس رواية فقط، في حين تمثل هذه سيرة ذاتية حقيقة للكاتب، يعترف بها فيما بعد بقوله" لقد لاحظت وأنا أتقدم في العمر أن وقائع الطفولة البعيدة تنطفئ في مخيلتي شيئا فشيئا(...) ولهذا عملت على جمع هذه الوقائع والصور في عمل أدبي روائي، هو ترجمة ذاتية وغير ذاتية في آن، لأنه يحكي عن عائلة، وعن بيئة عاشت فيها هذه العائلة مسترجعا في ذاكرتي الأشياء كما وعيتها، أو كما سمعتها من والدي وأقاربي فيما بعد(...)[12]

يعتبر هذا القول اعترافا صريحا من أحد الكتاب الذين يرون أنّ العلاقة بين السيرة الذّاتية وفنّ الرواية ضرورة تمليها طبيعة السّرد أو الحكي، حيث يمنحه التّخييل الروائي حرية أكبر للتّعبير عن حياته ومغامراته كيفما كانت "وهذا الإجراء يعتبر لدى البعض، من أبرز منجزات وتجليات الحداثة في الكتابة الروائية التي تعلق الأمر بنوع الرواية أو السيرة الذاتية والنتيجة التي يسفر عنها هذا التلاقح ما بين هذين النوعين السرديين، هو إعادة تعريف لمستجدات النوع الهجين، وتكييف محدداته، مع ظهور كل نتاج جديد يندرج في نطاقه"[13]

ومن هنا نقرّ باستحالة الفصل بين السّيرة الذاتية والرواية، على اعتبار أنّ السّيرة الذّاتية ما هي إلا شكلا من أشكال السرد تخضع لفنّيات الكتابة الروائية والتّأليف من لغة وشخصيات وزمان ومكان ، وتتخذ المرجعية الواقعية مثلما توظيف المرجعية التّخيلية التي تتيح للكاتب السّرد بأريحية وتناول بعض الجوانب التي يرفض أن يقدمها كما هي، وهنا يتدخل السّرد التخييلي لإنقاذ النّص من البتر أو تغييب بعض الأحداث لأنّ" السّرد الحقيقي لا يعمد إلى تقديم عمل فني راق، بل يسعى إلى إخراج عمل تاريخي تكون فيه الأولوية للمضمون على حساب الشكل وتقدم فيه المعرفة على الفن والحقيقة على الخيال."[14]

كما تساعد السّيرة الذّاتية على الغوص في أعماق التّجارب الإنسانية والاتعاظ بها فيما استحسن من حياة الكاتب، لذلك فهي تصنف ضمن أصناف الأدب العالمي، وعلى الرغم مما يكتسبه هذا النّوع السردي من اعترافات وتصريحات قد تكون قوية جدا لدى البعض إلا أن

الأدب الإسلامي سجّل تراثا ثريا من كتب التّراجم والسّير التي يعتد بها في الحضارة الإسلامية، خاصة ما أفاد في تعليم علوم الشريعة الإسلامية والاشادة بعظمائها.

وبالعودة إلى كتابة السّيرة الذّاتية الأدبية نجد في الأدب الغربي آثارا كثيرة لحياة كبار الكتاب والمفكرين على غرار كتاب (اعترافات) جون جاك روسو، وكتاب (أنا والسريالية) ل سلفادور دالي، وكتاب (هوس العبقرية) الذي ألفته باربارا غولد سميث عن سيرة العالمة الشهيرة ماري كوري، وكتاب (السيرة الذاتية) ل مارغريت كيمب وتعد هذه الأخيرة أقدم رواية انجليزية في السّيرة الذّاتية.

وأمّا الأدب العربي فهو لا يقل ثراء عن الأدب الغربي بل وهو الأقدم في الظهور من حيث ظهور بذور السيرة الذاتية وإن كانت غير مكتملة العناصر مثل سيرة معاوية وبني أمية، وسيرة إسحاق في عصر صدر الإسلام، وتطالعنا سيرة ذاتية أخرى مع تطور العصر مثل كتاب (الأيام) لطه حسين الذي يعد سيرة ذاتية تامة العناصر، ذلك "أن للأيام في السيرة الذاتية الحديثة مكانة لا تتطاول إليها أية سيرة ذاتية أخرى، في أدبنا العربي وخاصة في الجزء الأول منه لمزايا كثيرة."[15] ، و(عودة الروح) لتوفيق الحكيم، و(لقاء) لميخائيل نعيمة، وكتاب (حياتي) لأحمد أمين.

وهكذا أصبحت كتابة السّير–الذّاتي شائعة في الأدب الحديث والمعاصر أيضا على شاكلة، كتاب (رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر) لعبد الوهاب المسيري، كتاب (كناسة الدّكان) ليحي حقي، وكتاب (السيرة الطائرة) لإبراهيم نصر الله، و(سيرة المنتهى) لواسيني الأعرج، وكتاب (على الجسر بين الحياة والموت) لعائشة عبد الرحمان وغيرها من الكتابات التي يتداخل فيها السّير–الذّاتي بالروائي، ومع ذلك تظلّ ملامح السّيرة الذّاتية طاغية عليها.

3-صور التّداخل النّوعي في رواية على الجسر بين الحياة والموت:

تحدث جورج ماري في كتابه السيرة الذاتية عن علاقة السيرة الذاتية بالرواية وغيرها من الأنواع الأدبية الأخرى مثل المذكرات واليوميات والاعترافات، وبين من خلاله استفادة السيرة الذاتية من فنيات الكتابة الروائية وعناصرها الأساسية التي تتشكل منها، على غرار الشخصيات التي يتم السرد فيها بضمير المتكلم" وهذا الضمير عرفناه في المذكرات وسلطت عليه الرواية الضوء ليأخذ أشكالا عديدة ويستخدم في أكثر من موقع بثراء واضح ونضج ملموس"[16]

قامت الكاتبة (عائشة عبد الرحمان) في كتابها على (الجسر، بين الحياة والموت) بسرد سيرتها الذّاتية عن طريق ضمير المتكلم مفردا وجمعا حيث يعلو الضمير الحقيقي السارد من خلال الوصف والتذكر والتعبيرات الشعورية لوقائع عايشتها الكاتبة، خاصة عندما توقعها بقصيدة شعرية رثائية ثبت أنّها رثت بها زوجها الشيخ (أمين الخولي) معبّرة عن ألمها بفقده ومر انتظارها لزمن اللّقاء به في الدار الأخرى لمدة ثلاثين سنة بعد رحيله.

ولعلّ أول ما يصادفه القارئ لهذه السّيرة الذاتية هو ذلك التنوع القائم من ناحية الأنواع الأدبية، فهي رواية سيرة ذاتية ولكنها تفتتحها بقصيدة شعرية طويلة تصف من خلالها فحوى الكتاب ككل، وتلفت انتباه القارئ منذ الوهلة الأولى إلى مكانة زوجها، وتؤكد من خلالها أن حياتها بدأت بلقائه وانتهت بوفاته. وهذا ما يظهر في التصدير الذي تقول فيه " **وتجلّت فينا ولنا وبنا ، آية الله الكبرى الذي خلقنا من نفس واحدة فكنا الواحد الذي لا يتعدد، والفرد الذي لا يتجزأ، وكانت قصتنا أسطورة الزمان، لم تسمع الدنيا بمثلها قبلها، وهيهات أن تتكرر إلى آخر الدهر" (من الكتاب، التصدير)**

يظهر تداخل الأنواع الأدبية في هذا النّص السّير-ذاتي في صيغ مختلفة أهمها التّداخل بين الشعر والسرد الروائي عامة، كما نجد حضورا للأغنية في قولها:

" **وما شعرت قط ، أن أمي طاب لها المقام في الريف بعيدا عن أهلها، بل كنت أسمعها في وحدتها تشدو هامسة بأغنيتها المفضلة: زروني في السنة مرة*** حرام تنسوني بالمرة"(الرواية ، ص31.)**

والأمثلة في بعض المواضع مثل قولها(**ربّ ضارة نافعة**) (الرواية، ص74) دون أن ننسى التناص والاقتباس من القرآن الكريم، كقولها(**فتبسم ضاحكا من قولي وأجاب معقبا**) من قوله تعالى " **فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين**" **(الآية 19، سورة النمل)**، كذلك الاقتباس في قولها (**تفسيرا لآية الله العظمى فينا ، وخلقنا" من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها")(الرواية، ص147) من قوله تعالى" يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتّقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليما رقيبا"(الآية1، سورة النساء).** غير أنّ الذي يطغى على النّص هو التّداخل الظاهر بين الشعر باعتباره نوعا أدبيا فرض نفسه على متن الكتاب بمساحة واسعة، والسّرد الاسترجاعي الذي هو في أصله من تقنيات كتابة السّيرة الذّاتية.

<u>أولا: الشعر</u>: يرى النّاقد (مصطفى الضبع) أنّ **<u>التّداخل بين الشعري والروائي</u>** يأتي على ثلاثة صور؛ شعرية الأسلوب، ونصوص شعرية للروائي، ونصوص شعرية للآخرين.[17] وهي الصور التي نجدها حاضرة في رواية عائشة عبد الرحمان.

1-**<u>شعرية الأسلوب</u>**: تقدم الكاتبة روايتها باستعمال اللغة الشعرية التي تتيح للمتلقي الاستمرار في قراءة نصها وتذوق جمالياته اللغوية وصيغه التعبيرية التي تنفي عنه الواقعية الجامدة على امتداد الصياغة الشعرية بحيث "تفسح مجال الرؤية إزاء المتلقي ويمكن رصد مساحات من اللّغة الشعرية تتدرج من المفردة إلى التّركيب آخذة مواضعها في تفاصيل العمل متنقلة ما بين

الاستهلال والمتن، موسعة من فضاء النّص"[18] وهذا ما تحققه العناوين الفرعية الشاعرية التي توظفها الكاتبة بين فصول الرواية، وهي بالترتيب؛ **قبل أن نلتقي، في الطريق إليه، في منطقة الضباب، ظلال.. وأضواء، موعدي .. معه، اللقاء... ، معا...على دربنا الواحد، ثم مضى.. وبقيت، دنيانا بعده.**

تمثل هذه العناوين الأزمنة السردية التي ربطتها الكاتبة بشخصية مهمة في حياتها، وهو زوجها الشيخ أمين الخولي، لتبين للقارئ أن السيرة التي بصدد سردها هي حقيقة عايشتها، ولكنها في الوقت نفسه لم تعشها كما يعيشها أي انسان آخر، وإنّما كانت حياتها معه مليئة بالعواطف والمحبة، ما دفعها إلى الكتابة بلغة شعرية توحي بإحساسها المرهف وبقوة ما كان بينها وبين زوجها من مودة واحترام.

تقول وهي تسرد حياتها في بيت العائلة، قبل زواجها **(على ذلك الأفق الشجي الحزين، تفتح ادراكي وأنا أخطو إلى عامي الخامس.. ومن تلك الكأس المترعة بالشجن المر والحنان الدافق والعاطفة المرهفة، عرفت مذاق الحياة أول ما وعيت.. ومن تلك الشخوص الحية التي تقف بالأطلال، بدأت التقط خيوطا خفية من ذيول المأساة، ثم أتسلل إلى النهر كلما وجدت سبيلا إلى الإفلات من الرقابة المفروضة علي...) (الرواية، ص21.)**

يقترب أسلوب الكاتبة في هذا المقطع من أسلوب أي قصيدة رومانسية حزينة، خاصة في العبارات (الأفق، الشجي، الكأس المترعة، ذيول المأساة وغيرها) ، وهذا الأسلوب يسميه صلاح فضل **التّكوينات اللّغوية المتّسقة،** وهي بالنسبة له تنّم" عن اتساع فضاء النّص بحيث تمتزج شعرية الحرف بشعرية الحكي وتشف عنها، فلا نكاد نتوقف عند سطح الكلمات مع أنّها ذات ثقل انشائي باهر، اذ أن الصيغة تصبح حالة مكثفة تتولى تفجير الطاقة الشعرية للحظة السردية"[19] ومن صور الكثافة اللّغوية والأسلوب الشعري قولها**(ما أزال أكتب من بعيد. مطلة من وقفتي على الجسر، على آثار خطاي قبل أن ألقاه. إذ أغدو السير فوق دربي، عبر**

المفاوز الحرجة والمنحنيات الخطرة، في طريق تائه المعالم خابي المنارات. بغير زاد إلا الهواجس والمخاوف والظنون...) (الرواية، ص97).

وردت لغة الكاتبة عموما بأسلوب شعري ظاهر ينم عن روح الشاعرة فيها، التي تظهر بصورة مباشرة من خلال القصائد الشعرية التي أقحمتها في هذا النص السردي.

2-**القصائد الشعرية للكاتبة:** عبّرت لغة الكاتبة منذ البداية عن روحها الشعرية، وتميزها في ذلك، وقد كانت البداية في نصها السردي الذي نتحدث عنه مع قصيدة شعرية مطولة، وأنهته كذلك بقصائد شعرية متنوعة، ليصبح النص ككل بين دفتي قصائد شعرية متميزة، فكان أوّل ما كتبت في متن النّص قصيدة ترثي فيها زوجها قائلة:

على الجسر بين الحياة والموت

أقف حائرة ضائعة في أثر الذي رحل:

أطل من ناحية ، فأجده ملء الحياة

وألمح طيفه الماثل، في كل من حولي، وما حولي من معالم وجودنا المشترك ، واتتبع آثار خطاه على دربنا الواحد، دفاقة الحيوية سخية العطاء

وأميز أنفاسه الطيبة الزكية، في كل ذرة من هواء أتنفسه

وأصغي إلى نجواه:

في الصمت وفي الضجيج

في سكون الخلوة وفي صخب الزحام ...(الرواية، ص05.)

إنّ التّعبير بالشّعر بالنّسبة للكاتبة أعمق وأكثر دقة في وصف مشاعرها من التّعبير بالكلام المنثور، فهي ترى في الشعر تعابير وصور لا يمكن أن تترجمها نثرا، لأنّ ألمها نابع من إحساسها الصادق، هذا من جهة، ويظهر ميول الكاتبة إلى الشعر من جهة أخرى، خاصة

وهي تحكي عن مراحل تكوّنها، ومعاناتها يوم رفض والدها خروجها من البيت واعتبر ذلك إثما حتى لو كانت بحجة طلب العلم.

هذه الأحداث التي ترويها بتفاصيلها في متن الرواية، دفعتها إلى اقتناء كتب الشعر العربي القديم وحفظه، ممّا أهلها لنظم الشعر بعد ذلك، فتبدو (عائشة) الشاعرة هادئة في المزج بين السرد الروائي والنّظم الشعري الذي امتد على صفحات النّص لتثبت مرة أخرى أنّ تزاحم المشاعر والتّعابير في نفسها كان هو الموجه لها في كتابة سيرتها الذّاتية، وهذا ملمح آخر من ملامح الصّدق الفنّي الذي يحققه التّداخل النّوعي في هذه السيرة التي "امتصت في نسيجها العام معطيات تراثية عربية قديمة"[20]

ويظهر توظيف القصائد الشعرية في هذه السيرة من طرف الكاتبة نفسها شئيا طبيعيا يدخل في توالد السرد الروائي، ونجده مندمجا مع المعاني والأحداث بطريقة سلسة جدا بحيث لا نجد فاصلا دلاليا يفصل بين ما تقوله السّاردة شعرا أو نثرا، فلا يضعف ذلك لغتها، وإنما تصبح "علامة لها قوتها على التضفير بين نوعين: الشعر والسرد، وخلافا للطريقة المعهودة التي تعمد فيها الرواية على نصوص منسوبة لشعراء آخرين أو سابقين أو تعتمد من الأبيات ما يدور على الألسنة تأتي النصوص هنا ممرّرة بصورة طبيعية تكون قادرة على تقديم نفسها في السياق السردي دون أن تكون معزولة عنه أو دخيلة عليه.[21]"

تعترف الساردة في نصها السّير ذاتي بأنّها شاعرة بصريح العبارة، عندما طلب منها معلّموها أن تعرض عليهم شيئا من الشعر الحديث، فأجابت دون تردد: **(من شعري أو من شعر سواي؟ ولم ينسني مر السنين، ما بدا عليهم من عجب وقد قال أحدهم-إن كنت شاعرة فأسمعينا إحدى قصائدك. وأنشدتهم قصيدة لي "في الحنين إلى دمياط" مطلعها:**

دمياط حبك حركت أشجانه * آلام قلب الغرام مصفد.**

وأتبعتها أخرى: صورة شعرية لزوجة صياد خرج إلى البحيرة في ليل عاصف..)(الرواية،ص60).

تنتقل الساردة من الشعر إلى السرد بطريقة تلقائية ودون أن يحدث هذا التّداخل النّوعي خللا على مستوى السّرد القائم على لسانها، فتبدو مواضع الشعر طبيعية مثلما يبدو التتابع

السردي طبيعيا متسللا. والذي يؤكد هذا الترابط المتين والانسجام الدلالي الذي يحققه التداخل النوعي في هذه الرواية، أنها أفردت الفصل الأخير الموسوم" دنيانا بعده" بقصائد شعرية تحكي من خلالها حياتها رؤيتها للعالم وللأشخاص بعد رحيل زوجها، أربع قصائد من الشعر الحر، ذات وحدة عضوية ودلالات عميقة واصفة لمشاعرها وقضاءها في انتظار ساعة الرحيل، وهي بالتريب: قصيدة رؤيا، وبعد عام، وكلمات للذكرى، وعود إلى بدء. تقول في قصيدة (رؤيا، 1966/9/9 شوشاي):

طيف من أحببت طاف بنا

فتنبهنا على وقع خطاه

خلته قد آب من رحلته

مرهف الشوق وقد طال سراه

بعد يأس من رجاء الملتقى

بلغ البين بنا أقسى مداه.(الرواية، ص151)

تواصل الساردة في هذا النّص سرد سيرتها وعرض حالتها عن طريق الشعر الذي يبين في شكل حكائي مكمّلا لما سبق من مراحل حياتها التي روتها من قبل، ونجدها في هذا كله تحترم التسلسل الزمني لهذه الأحداث وهو ما جعل الشعر مكملا للنثر وداعما له. وقد عمدت الكاتبة إلى توثيق تاريخ كل قصيدة شعرية ومكانها لتكون شاهدا لها واعترافا بصدق سيرتها الذاتية، وهذا يظهر كذلك في صنف النوع الذي صرّحت به على غلاف الكتاب (رواية) بعد أن قضت شبابها تكتب تحت اسم مستعار(بنت الشاطيء) .

تقول في قصيدة (بعد عام) التي وقعتها (سنة 1967/3/9 مصر الجديدة):

ومضى عام وما زلت هنا

وأنقل الخطو،

على الجسر إليك...

مرت الأيام تغذوني الجوى

كيف لم أهلك أسى

حزنا عليك؟

كلما قلت دنا ميعادنا

خانني الظن..(الرواية ، ص154)

فاختارت السّاردة لنّصها هذه الخاتمة الشعرية مثلما خصّته بافتتاحية شعرية، وهذه التّقينة قلما ينجح فيها كاتب عربي. فكان آخر ما كتبت قولها :

في ثرى سينا، على شط القناة

وسقتهم جرعة ترياقها

عوذتهم برقاها الطيبات

أن يسيغوا ما أسغنا من قذى

أو يطيقوا ما أطقنا من عذاب

جدّدت فيهم خلايا خصبها

ورأت سحر صباها والشباب

وكأنا ما هرمنا،

وعقمنا، وانتهينا.(الرواية، ص168.

على سبيل الختام:

حظيت السّيرة الذّاتية في الأدب العربي المعاصر باهتمام كبير، أدى هذا الاهتمام إلى محاولة تحديث تقنياتها في كل مرة حسب قدرات الكاتب الفنّية ومكتسباته الأدبية ومعارفه السابقة، التي تساعده في تقديم نصّ سير–ذاتي روائي ناجح يمتع القارئ ويستهويه.

وقد تبين لنا من خلال هذه القراءة في السّيرة الذّاتية لعائشة عبد الرحمان، أنّ السّيرة الذّاتية تحتاج للتّعامل الفنّي والصّدق في سرد الأحداث، وهذه الصفة الوحيدة التي يمكنها أن تجعل التّداخل النّوعي بين الشعر والنثر تقنية فنّية لا يجيدها إلا كاتب متمرس وعارف بأصول السرد وقواعده. وفي هذه الحالة يحقق التّداخل النّوعي جمالية فنّية وثراء أدبيا وتجربة إنسانية حيّة بالنسبة للقارئ والنّاقد معا.

الهوامش:

[1] – ولاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، تر: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 1998، ص143.

[2] – فيليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي،تر: عمر حلي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1 ،1994. ص24.

[3] – تمظهرات التشكيل السير ذاتي، قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص136.

[4] –المرجع نفسه، ص140.

[5] – الأدب والأنواع الأدبية، تر: طاهر حجاز، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1985، ص126.

[6] – مصطفى الضبع، تداخل الأنواع في الرواية العربية، مؤتمر تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، تموز 2008، جامعة اليرموك، الأردن، المجلد الثاني، ص646.

[7] – مريم جبر فرحات، أثر تداخل الأنواع في بنية النص الروائي لدى إبراهيم نصر الله، مؤتمر تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، ص634.

[8] – ينظر: حسين المناصرة، وهج السرد، مقاربات في الخطاب السردي السعودي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1 ، 2005، ص97.

[9] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[10] – عبد الله إبراهيم، السيرة الروائية، إشكالية النوع والتهميش، مجلة نزوى، أبريل 1998، ص20.

[11] – محمد شكري، أسئلة الرواية، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط، ص205.

[12] – حنا مينة، هواجس في التجربة الروائية، دار الآداب، بيروت ، ط2، 1988، ص12.

[13] – عبد المالك أشهبون، التخييل السير الذاتي في السرد العربي ، التركيب والدلالة، مجلة أبوليوس ، مج06، ع02، جوان 2019، ص27.

[14] – ينظر: لطيف زيتوني، الرواية العربية ، البنية وتحولات السرد، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2012، ص51.

[15] – إحسان عباس، فنّ السيرة، دار الثقافة، بيروت، ط2 ، د.ت، ص131.

[16] – ليلى رحامنية، السيرة الذاتية الذهنية في رواية أوراق لعبد الله العروي، دار الحامد للنشر ، عمان، الأردن، ط1، 2016، ص131.

[17] –ينظر: تداخل الأنواع في الرواية العربية، مؤتمر تداخل الأنواع الأدبية، ص664...668.

[18] –مصطفى الضبع، تداخل الأنواع في الرواية العربية، ص664.

[19] – صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية، ص126.

[20] –جليلة الطريطر، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (بحث في المرجعيات) ، مركز النشر الجامعي ، تونس، ج1، د.ط 2004، ص421.

[21] – مصطفى الضبع، تداخل الأنواع في الرواية العربية، ص666.

المصادر والمراجع:

1- ولاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، تر: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 1998.

2- فيليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1 ،1994.

3- تمظهرات التشكيل السير ذاتي، قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.

4- الأدب والأنواع الأدبية، تر: طاهر حجاز، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1985.

5- مجموعة من المؤلفين، تداخل الأنواع في الرواية العربية، مؤتمر تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، تموز 2008، جامعة اليرموك، الأردن، المجلد الثاني، عالم الكتب الحديث، ط1، 2009.

6-حسين المناصرة، وهج السرد، مقاربات في الخطاب السردي السعودي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1 ، 2005.

7- عبد الله إبراهيم، السيرة الروائية، إشكالية النّوع والتّهميش، مجلة نزوى، أبريل 1998.

8- محمد شكري، أسئلة الرواية، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط.د.ت.

9- حنا مينة، هواجس في التجربة الروائية، دار الآداب، بيروت ، ط2، 1988.

10- عبد المالك أشهبون، التخييل السير الذاتي في السرد العربي ، التركيب والدلالة، مجلة أبوليوس ، مج06، ع02، جوان 2019.

11-لطيف زيتوني، الرواية العربية ، البنية وتحولات السرد، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2012.

12- إحسان عباس، فنّ السيرة، دار الثقافة، بيروت، ط2 ، د.ت.

13- ليلى رحامنية، السيرة الذاتية الذهنية في رواية أوراق لعبد الله العروي، دار الحامد للنشر ، عمان، الأردن، ط1، 2016.

14- صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية. الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ط،1995.

15-جليلة الطريطر، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (بحث في المرجعيات) ، مركز النشر الجامعي ، تونس، ج1، د.ط، 2004.